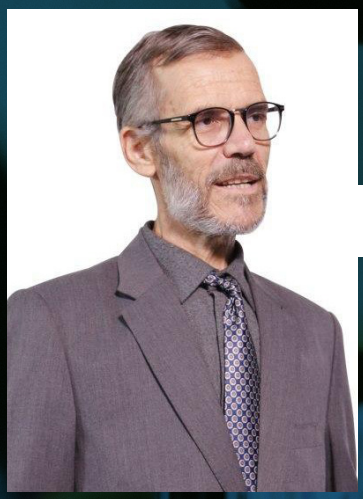

حوارات | Dialogues

حوار الأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن بودرع[١]

يحاوره الأستاذ/ فضيل ناصري[٢]

A Conversation with Professor Dr. Abderrahmane Boudraa

By: Professor: FADIL NASSIRI

١ أستاذ لسانيات النص وتحليل الخطاب- جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب.

٢ باحث في البلاغة وتحليل الخطاب. كلية اللغة العربية ـ مراكش.

السؤالُ الأولُ:

بداية، لا أحد يجادل في أن اللسانيات بحسبانها علمًا حديثًا، تعد فتحًا معرفيًا مهمًا أسعف الباحثين في مختلف فروع المعرفة في مقاربة نصوص وخطابات متنوعة. أسالكم سؤالاً بدهيًا عند كثيرين: ما اللسانيات؟ وما أهم مدارسها؟ وما درجة إسهامها في بناء المنهج؟

أ- علمُ اللّسانيات من العُلوم الإنسانية الحديثة، لأنّه أحدثَ قطيعةً إبستيمولوجيةً مع علوم اللّغة التقليدية في الغربِ، من جهتين:

- أولاهما أنّه انتقلَ من دِراسة اللغة وظواهرها والتقعيد لَها، إلى دراسة الآليات التي تولِّدُ البنياتِ اللغويةَ والقواعدَ التي تنتجها، أي انتقلَ البحث اللسانيُّ من البحثِ في اللغة إلى البحث في نحو اللغةِ.

- الثانية أنّه انتقل من الاهتمام بلغة خاصّة من اللغات البشرية المعروفة إلى الاهتمام بنظرية اللغة الإنسانية عامّةً بغضّ النّظر عن الأنماط والأنواع.

ب- أما عن المدارسِ اللّسانية التي تندرِجُ في اللسانياتِ المُعاصرَة فَهي كَثيرةٌ ومُتشعّبةٌ، وتَعدّدُها راجع إلى الأسس الفكرية والفلسفية والمعرفية التي تنطلق منها كلّ مدرسة أو اتّجاه، فقد بدأ البَحثُ اللسانيُّ مع العالِم اللّغويّ السويسري دوسوسير بوصفِه حاملَ لواءِ التّجديد اللغويّ ومُحقِّقَ القطيعة مع مَناهج الدّراسةِ التقليدية التي كانَتْ تحشرُ في دراسة اللغة اعتباراتٍ اجتماعيةً وعرقيةً وتاريخيةً... وفَرَضَ منهجاً وصفياً صارماً يعتمدُ على ثنائية الدّالّ والمدلول... وعلى عَدِّ البنية اللغويّة بنيةً مُغلَقَة لا تتأثّر بالعوامل الخارجيّة، ولا تتحكّم فيها

المؤثّراتُ الاجتماعيّة غيرُ اللّغويّة

ماذا يعني مصطلحُ "اللسانياتُ؟

الحقيقةُ أنّ مصطلَح "اللسانيات" أو "اللّسْنيات" أو "الألسنيّة" مصطَلَح حديثٌ في الدرس اللغوي العربي لا تتجاوزُ نشأتُه السّبعينيات، مستمَدٌّ من الأدبياتِ الغربيّةِ في دراسةِ اللّغة الطّبيعيّة دِراسةً علميّةً ممنهجة، وقدْ أصبحَ هذا العلمُ مُستَعاراً في سائرِ الثّقافاتِ الكَونيّةِ اليومَ. وعلى الرّغم ممّا يشوبُ مُصطلَحَ اللّسانياتِ في العالَم العربيّ من تشعُّب واختلافٍ وتشتّتٍ وتعدّدِ مَجالاتٍ، فإنّه أصبحَ أمارةً على التّحديثِ في مناهجِ الدَّرس اللّغويّ والبلاغيّ والأسلوبيّ، وتَجاوُزِ الطّرقِ التّقليديّة التي كانت متّبَعَةً في مُقاربةِ الظّاهرة اللّغوية.

الاخْتلافُ والتَّبايُن في الدِّراساتِ اللّغويّة

تَتميزُ الدّراساتُ اللسانيةُ بالاختلاف والتّباين في وجهاتِ النظرِ إلى حدّ كَبيرٍ، وبالتّجديدِ المستمرِّ في هذِه النظريات، حيثُ تأتي بين الفنية والأخرى نظريةٌ تُلغي سابقتَها

أجَل، اللغة عميقةٌ تستحقّ كلَّ هذه الجهود النّظرية والتطبيقيّة في الدّراسة والوصف والتفسير، اللغةُ ظاهرةٌ إنسانية من أعقد الظّواهر، ليست اللغة مجرّدَ أصوات أو تراكيبَ تدلّ على معانٍ، ولكنها مخزونٌ معرفيّ في ذهن المتكلّم، وبنياتٌ لغوية تعكس بنياتٍ فكريّةً وتمثيلاتٍ ذهنيّةً. ومهمّةُ الباحثِ اللسانيّ أن يبحثَ في خصائصِ اللغاتِ البشريةِ وفي طُرقِ اكتسابِ المتكلّم لها وأن يصطنعَ أدواتِ الوصفِ والتّفسيرِ لمقارَبَةِ الظّاهرة اللّغويةِ مُقاربةً علميّةً منهجيّةً.

أمّا اختلافُ المدارس اللسانية في وصف اللغاتِ الطّبيعيّة وتفسيرِها فهو راجعٌ إلى أمرين:

- أولا: الأسس النّظريّة والفلسفيّة التي تعتمد عليها كلُّ مدرسة في تناول الظّواهر اللّغوية ومقاربتِها (كالفرق بين المدرسة البنيوية والمدرسة التوليدية والمدرسة الوظيفيّة...)

- ثانيا: التّبايُن الشّديدُ بين اللّغات في الأصواتِ والبنياتِ الصرفيةِ والتّركيبيةِ والمعجميّةِ والتأويل الدلالي، أي الاختلاف والتّنوّع في حقل الظّواهر اللّغوية الموصوفة، هذا التّبايُن الذي يفرض على الباحث أن يصوغَ نظريّاتٍ لسانيةً واصفةً ومفسِّرةً تتّسمُ بالبساطة واليُسر، والتّماسُك والانسجام، والشّموليّة والاستيعاب، والمرونة، لكي تكونَ قابلةً للتطوير والاستجابَة لما يجدّ من ظواهرَ

ولقد عرفتْ كثيرٌ من النظرياتِ اللسانية تطوراً ملحوظا بتَجاوُزِ نماذجَ نحويّةٍ وصياغة نماذجَ أخرى جديدةٍ متطوّرةٍ تَستجيبُ لإشكال التبايُن اللّغوي المذكورِ وتُراعيه، ولقضية الكفاية اللغوية لدى المتكلّمين، ومن هذه النظريات نظرية النحو التوليدي التحويلي، ونظرية النحو الوظيفي.

السؤال الثاني:

تحبل الساحة الثقافية بمجموعة من النقاشات؛ منها نقاش العلاقة بين قطب اللغويات العربية القديمة وقطب اللسانيات الحديثة. ما هي أوجه الائتلاف والاختلاف بين القطبين؟

الحقيقةُ أنّنا عندَما نُطلقُ مُصطلَحَ اللسانياتِ فإننا لا نَعني به ما تَعنيه عُلومُ العربية بالمعنى القَديم؛ لأسبابٍ عِدّة نوجزها في ما يلي:

- أنّ اللسانيات دراسةٌ منهجيّةٌ علميّةٌ للظّاهرة اللّغوية البشريّة عامّةً، أمّا علومُ العربية فهي دراسةٌ تتناولُ جوانبَ من اللّغة العربية خاصّةً كالجانب النّحويّ أو الصّرفي أو البلاغي...

- واللسانياتُ علمٌ حديثٌ وُلِدَ في الغربِ عَلى أنقاض عُلوم اللّغة الكلاسيكية وفقه اللغة المقارن والنحو المعتمِد على المنطق الأرسطي... بعدَما أحدثَ قطيعةً مَعرفيّةً ومنهجيّة مَع ماضي الدّراسات اللغويةِ.

- أنّ اللسانياتِ شُعبةٌ من شُعب العُلوم الإنسانيّة لأنّها تتناول بالدّراسة ظاهرةً من الظّواهر الإنسانيّة هي الظّاهرة اللّغويّة، وتعتمدُ في رصدِ موضوعِها على منطق النّمذَجَة أي صياغةِ النّماذج اللّسانية التي تَفترضُ الآلياتِ التي تشتغل بها اللّغاتُ البشريةُ .

أمّا علومُ العربيةِ فهي مَحْصورَةٌ في دراسة اللّغة العربيةِ وحدَها، واستخراج قواعِدِها وبيان أنساقِها، وقد ألّف العلماءُ المصادرَ الكثيرةَ في دراسةِ مُعجم العَربية ونَحوِها وإعرابِها وصرفِها وأصواتِها وبلاغتِها... ولكنّها بلغت من الدّقّة في المنهج والعُمقِ في النّظر والتفصيل في البحثِ ما جعلها قابلةً لأنْ تَقفَ في مصافّ اللغويّاتِ العالميّة اليومَ وأن تُقارَن بكثيرٍ من النظريات اللسانية الحديثة.

- ويُضافُ إلى الحديث عن الفَرق بين الدّراسات اللّغوية العَربية القَديمة والدَّرسِ اللسانيّ الحديثِ أنّ اللسانياتِ الحديثةَ أتيحَ لها في هذا العصرِ الاستفادةُ من السياق العلمي المستفيض؛ إذ أفادتْ من المعارفِ الإنسانية والعلوم الدّقيقة وعلوم الحاسوب والإعلاميات، وهو أمر لم يُتَح بالقوّة نفسِها للعلوم العربية قديماً.

- ثمّ إنّ الدّراساتِ اللغويةَ العربيةَ القديمةَ عندما كانَت تبني نَحوَ لغتِها الخاصّة، فهي إنّما كانتْ تفعلُ ذلك بُغيةَ حفظِها من اللّحن والانحرافِ، أمّا اللسانياتُ الحديثةُ فإنها تَسعى إلى بناء "نحو كلّيّ" يصفُ ويفسّرُ خصائصَ اللغاتِ الطّبيعيّة بصورةٍ أعمّ .

أضفْ إلى ذلكَ وجود نوع من الحَساسيّة في التّعامُلِ من اللّسانيّات الحَديثَة، فما مصدرُ هذه الحساسيةِ التي تَرى أن اللغة العربية وُصفَت بما يَكفي بمناهج النحو والبلاغة وعلوم الآلَة العربية،

ولم تُبْقِ هذه العلومُ زيادةً لمستزيد، والسببُ في ذلك تفاضُل اللغات، وأن للغة العربية امتيازاً وأفضليةً ليس لباقي لغات الأرض.

والحقيقةُ أنّ الفرق بين اللغويات العربية والنّظرياتِ اللسانيةَ الحديثةَ أن هذه الأخيرةَ تسوّي بين اللّغاتِ ولا تفاضلُ بينَها؛ لأنّ اللغاتِ أدواتٌ للتواصُلِ والتّداوُل والتّعبيرِ عن الحاجاتِ، ومَعلوم أنّ اللسانياتِ تنقسمُ إلى تياريْنِ متباينيْنِ:

- تيار صوريّ يقف عند بنية اللغة ولا يتعدّاها إلى ما يمكنُ أن تحملَه من وظائفَ تواصليّة.

- وتيار وظيفيّ يصفُ بنيةَ اللّغةِ من خلالِ ما تؤدّيه من وظائفَ داخلَ المجتمع

ومع ذلك فاللغاتُ الطّبيعيّةُ تتساوى عندَ اللّسانيينَ سواء أكانت بنيةً مجرّدَةً أم كانتْ بنية وظيفيّة. فلا عيبَ في النّظرِ إلى اللغاتِ الطّبيعيّة بمنظارِ اللسانياتِ الحديثةِ، ولا غضاضَةَ؛ لأنّه منظار موضوعيّ يعتمدُ المنهجيّةَ العلميّةَ في الوصف والتّفسيرِ.

أ. ما الذي استفادتهُ العربيةُ أو يُمكنُ أن تستفيدَه من اللسانياتِ بفُروعها، وهي اللسانياتُ النظريةُ، واللسانياتُ التطبيقيةُ، وما يدخلُ تحتَها من قَضايا تَعليم للغات والحَوْسَبَة اللغوية والسياسَة اللّغويّة.

ب. وهل كانَ في منهجِ تقسيم الدّرس اللغويّ إلى مستويات متعدّدَة تقتطعُ المادّةَ اللّغويّةَ إلى بنيات صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية وتداولية، ما يُثري دراسةَ اللغة العربية وتحليلَ أبعادها ويكشفُ منها ما لم يستطعْه النحو العربي؟

ج. ما هي الثمرةُ المعرفيّةُ المرجوّةُ من مقاربَة القَضايا والإشكالات اللغوية العربية بواسطَة الدّرس اللساني الحَديث، هَل يُرادُ من كلِّ مقاربةٍ لسانيةٍ حَديثَةٍ لمنهج البحث اللغوي القَديمِ أن تُسهمَ في تَقريبِ عَلاَقَةِ النَّظَرِ النَّحْوِيِّ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وتَنْزِيلِ أدَواتِ الوَصْفِ عَلى ظَواهِرِ العَرَبِيَّةِ، بطريقةٍ جديدةٍ تَعتَمِدُ المُقارَباتِ اللّسانيّةَ، في مَواضِعَ تَطْبيقِيَّةٍ مَخْصوصَةٍ؟

هذه بضعُ أسئلةٍ أو إشكالاتٍ أثيرَت في سياق الحَديث عن أولوياتِ البحث اللساني في العالَم العربيّ، وهي أسئلةٌ لا تنفصلُ عن الأسئلة الكبْرى المتعلّقَة بتحديثِ منهج النظر إلى الثقافَة العربية وتجديدِ أدوات البحث والتحليل لاستكشافِ المعاني والأفكار والفَوائد المعرفية التي تنتظرُ مَن يُجدّدُ لها أمرَ الاستخراجِ؛ فلعلّه باتَ من البديهيّاتِ التّذكيرُ بما حمَلَته العُلوم الإنسانيةُ Humanity contributions من جَديدٍ في مناهجِ البحث في الظَّواهرِ الإنسانيّةِ؛ ومنها مناهجُ البحثِ اللسانيّ التي أخذَت تتجاوزُ الصّفةَ المعياريّةَ إلى الوصفيّةِ والتفسيريّةِ العلميّةِ، منذُ أن نُشِرَت أَمَالِي دوسوسير وكتاباتُه التي جُمعَت في المُصنَّفِ المعروفِ: "مُحاضرات في اللسانياتِ

العامّة"[٣] ، إلى أن استَوَت اللسانياتُ على يد المدارسِ اللاحقَة، في أوربا والولاياتِ المتّحدَة.

فلَم يعُدْ أمامَ أحدٍ مجالٌ للشّكِّ في علميّةِ اللسانيّاتِ الحديثَة المتسلِّحةِ بمناهجِ البحث النظريّ والتّجريبيّ، وإن تفاوَتَت درجاتُ الموضوعيّةِ والعلميّةِ والاطّرادِ وغيرِها من قَسَماتِ العلوم الحَديثةِ، ولم تظهَرْ بالقُوّةِ نفسِها التي تظهرُ بها في العُلوم الطّبيعيّةِ، أمّا اللسانياتُ العربيةُ الحديثةُ فإنّ الإشكالَ المُثارَ بخُصوصِها إشكالُ المَنهجِ، أي منهج تَأسيسِ مَعْرِفَةٍ لسانيَّةٍ عربيّة حديثةٍ، قادرةٍ على بناءِ تَصَوُّراتٍ وأفْكارٍ عامَّةٍ، لِفَهْمِ الظّاهِرَةِ اللُّغَويَّةِ:

- سَواء في بُعْدِها التُّراثيِّ الحَيِّ الذي يُشْهَدُ لَهُ بِالاسْتِمْرارِ، والتَّمَكُّنِ في مَواكَبَةِ تَطَوُّرِ الدَّرْسِ اللِّسانيِّ الْمُعاصِرِ.

- أَوْ في إطارِ المُوازَناتِ بَيْنَ النَّماذِجِ والاجْتِهاداتِ المقْتَرَحَةِ لِوَصْفِ الظَّواهِرِ اللُّغَويَّةِ و تَفْسيرِها،

- أَوْ في إطارِ إجْراءِ مُقَرَّراتِ النَّحْوِ واللِّسانِيّاتِ، عَلى النُّصوصِ الأَدَبِيَّةِ وغَيْرِ الأَدَبِيَّةِ، وإخْراجِها إلى حَيِّزِ التَّطبيقِ، والفَهْمِ والتَّفْسيرِ لِلْقَضايا النَّفْسِيَّةِ والعَقَدِيَّةِ والاجْتِماعِيَّةِ والتّاريخِيَّةِ والسِّياسِيَّةِ، والإنسانِيَّةِ المتَنَوِّعَةِ، عُمومًا[٤].

غيرَ أنّ كثيراً من الكتاباتِ اللّسانيّةِ العربيّةِ لا تكادُ تَرقى إلى أساليبِ التأليف اللسانيّ الغربيّ، لاختيارِها مداخلَ منهجيّةً تتَّسمُ بالقُصورِ عن بُلوغ المَرامِ، وبالنّقصِ في أدواتِ البحث والتّحليلِ وجمعِ الظّواهِرِ، والميلِ إلى البُحوث ذاتِ الطَّبيعةِ التطبيقيّةِ على الظواهِرِ الجُزئيّةِ وإهمالِ وظيفةِ التنظير للسانياتٍ عربيّةٍ حديثةٍ تقفُ في مصافِّ اللّسانيّاتِ الكلّيّةِ، ويُمكِّنُها التّنظيرُ من التّحكُّم في تحديدِ أولوياتِ البحثِ اللّساني.

لكنَّ تَراكُمَ المؤلَّفاتِ اللّسانيّة العَرَبيّةِ في الثّلاثينَ سنةً الأخيرَة، خاصّةً فيما يُقرّبُ اللسانياتِ الحَديثةَ من اللغوياتِ القَديمةِ فرضَ على اللسانياتِ العربيّةِ وَضعاً جديداً في مُقاربة الظاهرةِ اللغويّةِ مَنهجاً وغاياتٍ وأدواتٍ، وكانَت هذه المرحلةُ بدايةَ انشغالِ **الخطابِ اللساني** العربي المُعاصر بالعلاقة بين الدَّرس اللّساني الحَديث وعلوم العربية، وبطبيعةِ العلاقَة التي يُمكنُ أن تُبْنى بين تُراث العربيّة واللسانياتِ، عندَ مَن يَقولون بإمكان التقارُب والترادُفِ في الأنساق وأصول المَفاهيم، لكنَّ البحثَ اللّسانيَّ العربيّ الحديثَ -لكي يتوصَّلَ إلى تحديدِ هذه الأولوياتِ - « يفتقرُ إلى دراساتٍ كافيةٍ تُحدِّدُ لأسُسَ الإبستمولوجيةَ والتّصوُّريّةَ التي تضبطُ العلاقةَ بين اللّسانياتِ والنّحوِ العربيّ. لقَد انشغَلَ الخطابُ اللساني العربيّ المُعاصرُ بمَفهوم التأصيل الذي يُحاولُ تتبعَ بعضَ المفاهيم اللّسانيّةِ المعاصرةِ وإيجادِ نظائرَ لها عند النّحاةِ. وقَد نتجَ عن ذلكَ أغلاطٌ

(3) Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, Publié par Charles Bally, Albert Sechehay et Albert Riedlinger. Ed. Arbre d'Or, Genève, 2005.

(٤) عبد الرحمن بودرع: في اللّسانيّاتِ واللّغة العربيّة، قَضايا ونَماذج، ص: ٥.

وأغاليطُ...»[٥].

غيرَ أنّ هذا جانبٌ واحدٌ فقط من جَوانبِ إشكالِ الحديثِ عن سؤالِ الأولوياتِ في الدّرس اللّسانيّ العَرَبيّ، ويَبقى هذا السُّؤالُ قائماً يَحتاجُ إلى معالجةٍ منهجيّةٍ تتجاوزُ التناوُلَ الجزئيَّ البسيطَ لعلاقةِ اللسانياتِ الحديثَة بعلوم العربية، إلى البحثِ في إمكانيةِ بناءِ لسانياتٍ عربيّةٍ تنضبطُ بضوابطَ منهجيّةٍ وتتوسّلُ بوَسائلَ ومَفاهيمَ ونسقٍ من الاستدلالاتِ، التي تجدُ مرجعيتَها النظريّةَ في الدّرسِ اللّسانيّ المعاصرِ وتتَّسعُ قُدرتُها لتشملَ وصفَ الظّواهرِ اللّغويّةِ العربيّةِ.

السؤال الثالثُ:

ترتبط اللسانيات باللغة ارتباط تلازم. باستحضار هذه الرابطة المتينة ماذا تقترحون لأجل النهوض بالعربية المعيار، وجعلها لغة فاعلة في محيطها؟

اللسانيات علم وُضِعَ لدراسة اللغات البشرية باستعارة مناهجَ من العلوم الإنسانية ومن بعض العلوم الدقيقَة، وذلك بُغيةَ التوصل إلى نتائجَ دقيقة بخصوص البنيات اللغوية وكيفية إنتاجها وطريقة ارتباط الدال بالمدلول،

(٥) محمّد بن صالح وحيدي، اللّسانيّاتُ والتّراثُ النّحويّ: إشكالاتٌ منهجيّةٌ وإبستمولوجيّة، سجلّ أعمال النّدوة الدّوليّة الثّانية: قِراءَة التّراث الأدبيّ واللّغويّ في الدّراساتِ الحديثَة، بحوث علميّة محكّمة، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، منشورات جامعة الملك سعود، كلية الآداب، الرياض، ص: ٤٠٩.

الخُروجُ عن سَمْتِ العربيّةِ أمرٌ منتظرٌ، وهو من طَبائعِ الأشياءِ والنّاسِ، حتّى في الشّرائعِ والملل والنِّحَلِ؛ فَما بُعِثَ الأنبياءُ والرُّسُل إلاّ ليُجدّدوا للنّاسِ ما اعوجَّ من أمورِ دينهمِ وما انحَرَفَ من عَقائدِهم، فهذه رسالةٌ لا تنقطعُ، متسلسلةٌ مُتَّصلةُ الحَلقاتِ، فأمّا في النّحوِ فَما زالَ العُلَماءُ يُصنّفونَ و يُصحّحونَ ويُجدّدون، منذُ عهدِ سيبويْه إلى عصرِنا هذا، على تَفاوتٍ بينهُم في الارتدادِ إلى التقليدِ أو جرأةِ التّجديدِ، وما زالَ أهلُ اللغةِ يُصنّفونَ المَعاجمَ ويستدركُ بعضُهُم على بعضٍ فَواتَه، إلى يوم النّاسِ هذا، وما زالَ أهلُ التّعبيرِ يُصنّفونَ في لَحْنِ العامّةِ بَل لحنِ الخاصّةِ أنفُسِهم و يحرِصونَ على تصفيةِ اللغةِ من الأوشابِ، فأنتَ تعلمُ من هذه الحَرَكَةِ الدّائمةِ الدّائبَةِ أنّ أمرَ اللغةِ عَظيمٌ وخَطَرها جَسيمٌ، وسيظلُّ كلُّ عصرٍ يجمعُ بين جَناحَيْه الانحرافَ والتّقويمِ، واللّحنَ والتّصحيحَ، واستحداثَ الشّاذِّ والقياسَ على الوارِدِ المَسْموعِ.

وقد تُستعارُ بعضُ أدوات اللسانيات الحديثة للقيام بواجب تصحيح التركيب العربي وتخليصهمما علق به مما ليس منه

السؤال الرابع:

يعزو كثيرٌ من الباحثين "تلكؤ" علم اللسانيات في البيئة العربية إلى الفوضى التي تطبع ترجمة مفاهيمه ومصطلحاته بوصفها مفاتيحه

المضطلعة بتقريبه، والعمل على نباته النبات الحسن في الثقافة العربية. كيف تردون على هاته الدعوى؟

ذهبَ بعضُ الباحثينَ إلى القولِ بوُجودِ أزمةٍ في تَوطينِ البحثِ اللّسانيّ العربيّ، وتتمثّلُ هذه الأزمَةُ في المجالاتِ النّظريّةِ المُتَّبَعَة، وفي المَنهجِ والموضوعاتِ البحثيّةِ، وفي جانبِ المؤسَّساتِ اللّسانيّةِ وأقسامِ تَدريسِ اللّسانيّاتِ، وما يتّصلُ بذلكَ من مُدرّسينَ وطُلاّبٍ. أضفْ إلى ذلكَ أنّ هذا العلمَ يُنزَّلُ منزلةً دونَ باقي العُلومِ الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ . وهذه الأزمةُ التي أصابَت البحثَ اللّسانيَّ ليسَت خاصّةً به، ولكنّها جزءٌ من أزمةٍ عامّةٍ أصابَت المؤسساتِ الجامعيّةَ والبحثَ العلميَّ عامةً، وهذا شأنُ كثيرٍ من المعارفِ الجديدَةِ التي تحلُّ بثقافةٍ ذاتِ طابعٍ مختلفٍ، كالثقافَةِ العربيّةِ. ولكنّ تلكَ الأزمةَ كانَت حافزاً للانطلاقِ في تعميقِ البحثِ اللسانيّ العربي وتطويرِه ليُواكبَ الدَّرسَ اللّسانيَّ الغَرْبيّ.

ولعلَّ جزءاً كبيراً من الأزمَة التي نشأت مع نشأةِ اللسانياتِ العربيّةِ، راجعٌ إلى صفةِ التلقّي الأوَّلِ الذي تلقّى به القارئُ العربيُّ الثّقافةَ الغربيّةَ في مجالِ الإنسانياتِ عامةً والثّقافةَ اللسانيّةَ على وجه الخصوصِ، وما طبَعَ هذا التّلقّي من ريبةٍ وصراعِ قيمٍ، مردُّها إلى أنّ كلَّ فكرٍ مُستنبَتٌ في دياره ويَحملُ خصائصَ أصحابِه ويُعالجُ مُشكلاتهم وإن ادَّعَوْا أنّه خرجَ من حدِّ الخُصوصيّاتِ إلى حَدِّ الكلّيّاتِ، وهذا ما عبّرَ عنه تودوروف (T. Todorov) بقولِه: « صورةُ الآخَر تُحيلُ إلى واقعِ مَن يُركِّبُها وتُعبّرُ عنه، أكثر ممّا تُحيلُ إلى واقعِ مَن رُكِّبَت له وبُنِيَت لَه»، ويميزُ تودوروف في كتابه "نحن والآخَرون" بينَ الذّاتِ وهي جَماعةٌ ثقافيّةٌ واجتماعيّةٌ تجمعها خصائصُ ، وبينَ الآخَرين الذين يَختلفون عن الذّات في تلك الخَصائص .

ولكنّ تلكَ الأحوالَ النّفسيّةَ ما لبثت أن أخذَت تتبدَّدُ عندَما انتشَرَت الأبحاثُ اللّسانيّةُ الغربيّةُ بتَدريجٍ في المَشهدِ التّداوليّ العَرَبيّ.

ومن مَظاهرِ الأزمَة أيضاً مُشكلةُ المصطلَح في الدّرس اللسانيّ والأدبيّ العربيين، وهي مشكلةٌ نشأت عندَما اتّصلَ هذا الدّرسُ العربيّ الحديثُ بمُنجَزاتِ العلوم الإنسانيّةِ الوافدةِ من الغربِ، فعرَفَ المُصطَلَح في بلادِ العربِ حالةَ فَوضى وحالَةَ خلطٍ واضطرابٍ وعدمِ اتّفاقٍ واستقرارٍ خاصّةً في الفترةِ الواقعةِ بين أربعينياتِ القرنِ الماضي وستّينياتِه، والسببُ في أزمة المصطلَح اختلاف مناهج الدّارسين الذين كانوا يغترفون من التراث وينحتون منه مصطلَحَهم، والذين يَضعون مُصطلحاتٍ جديدةً لا تَعبأ بقَواعدِ اشتقاقِ المصطلحِ العَربيّ المناسِبِ ، وتجلّت الأزمة على وجه الخصوص في حَركات النقلِ والتّرجمة لما جدّ ويجدّ في ميدان العلوم الإنسايّة خاصّةً وفي اللسانياتِ بصفةٍ أخَصَّ.

ولكنّ تطوّرَ البحثِ اللغويّ العربيّ بعدَ هذه الفترةِ لم يَمْحُ محواً تاماً أزمةَ وَضْعِ

المصطلَح العربيّ المناسبِ للمَفاهيمِ والمقولاتِ اللِّسانيّةِ الحديثَةِ؛ إذ ظلّ المنهجانِ المختلفانِ سائدَينِ، فأوّلُهما يَبحثُ عن مُقابِلٍ للمُصطلحاتِ اللّسانيّةِ الغَرْبيةِ في مُصطلحاتٍ لُغويةٍ عَرَبيةٍ قديمةٍ ذاتِ حمولةٍ مَعرفيةٍ مُختلفةٍ مِن غَيرِ مُبالاةٍ بمُناسَبَتها للمَدلولِ عليه أو عَدمِ مُناسبتها، والمنهجُ الثاني كَسَرَ قاعدةَ العَودةِ إلى التُّراثِ وابتَدعَ مُصطلحاتٍ غريبةً لا يُفهمُ مَعناها إلا إذا قُرِنَت بأصلِها اللّاتيني، وهذا مَظهرٌ من مَظاهِرِ أزمةِ البَحثِ العِلميّ العَرَبيّ في مَجال العُلوم الإنسانيّة، ومِن مظاهِرِ الأزمةِ أيضاً البُعدُ الفَرديُّ في العَمل العِلميّ عندَ العَربِ المعاصرينَ، الذي يوضعُ في مُقابلِ البُعدِ الجَماعيّ والعَملِ بالفريقِ، عندَ عُلماءِ الغرب وباحثيه .

ولَقَد قَدَّم الدكتور طه عبد الرحمن مبادرةً في حلّ أزمةِ ترجمة المُصطَلَح في العلوم الإنسانيّةِ، ومفادُها أنّه شقَّ منهجاً جديداً في ابتكارِ المصطلحاتِ واشتقاقها وفقاً لقواعد الاشتقاق الصرفية العربية، مُحققا درجةً عاليةً من الدّقّة في ترجمة مُبدعة مبنيةٍ على الانتقاء والصّياغَة الدّالّة التي تُعبّرُ عمّا يدخلُ ضمنَ دلالة المصطلَح، ساعَدَه على ذلك علمُه الواسع بالدلالة والمنطق، وإلمامُه الجيد بفلسفة اللغة، واطّلاعه الكبير على التراث اللغوي والفلسفي العربي والإسلاميّ، ومعرفتُه الجيدة بأصول الصرف والاشتقاق ونحت المصطلحات، فتلكَ المعارفُ والعلومُ والمناهجُ منحته مَلَكَةَ اشتقاق المصطلح المناسب وإبْداعه، ومن ذلك مصطلح التداوليات وغيرها من عشرات المصطلحات المبثوثة في كتبه الفلسفية والحجاجية... انظرْ: طه عبد الرحمن: **فقه الفلسفَة: ١-الفلسفَة والترجمة**، المركز الثقافي العربي ١٩٩٦

السؤال الخامس:

٥- يقرن عموم السامعين اللسانيات بالغرب، أليس في المجال العربي تجارب لعلماء وباحثين حقيقة بأن نخلع عليها توصيف المدرسة اللسانية العربية الأصيلة من حيث هويتها؟ وإذا كان ردكم بالإيجاب فاذكروا لنا بعض الأعلام، وإضافاتهم، وملامح التجديد والأصالة في منجزاتهم.

نَعَم، اللسانياتُ الحديثةُ علمٌ غربي خالصٌ، وفرقٌ كبيرٌ بين مُصطلَحَ اللسانياتِ وما تحمله من حمولةٍ مفهوميّة ومعرفيّةٍ، وبينَ ما تَعنيه عُلومُ العربية بالمعنى القَديم؛ لأسبابٍ عِدّة نوجزها فيما يلي:

- أنّ اللسانيات Linguistics دراسةٌ منهجيّةٌ علميّةٌ للظّاهرة اللّغوية البشريّة عامّةً، أمّا علومُ العربية فهي دراسةٌ تتناولُ جوانبَ من اللّغة العربية خاصّةً كالجانب النّحويّ أو الصّرفي أو البلاغي...

- واللسانياتُ علمٌ غربيٌّ خالصٌ[٦]، حديثُ النشأة، وُلِدَ في الغَربِ عَلى أنقاض عُلوم اللّغة الكلاسيكية وفقه اللغة المقارن والنحو المعتمِد على المنطق الأرسطي... بعدَما أحدثَ قطيعةً مَعرفيّةً ومنهجيّة مَع ماضي الدّراسات اللغويةِ.

- أنّ اللسانياتِ شُعبةٌ من شُعب العُلوم الإنسانيّة لأنّها تتناول بالدّراسة ظاهرةً من الظّواهر الإنسانيّة هي الظّاهرة اللّغويّة، وتعتمدُ في رصدِ موضوعِها على منطق النّمذَجَة أي صياغةِ النّماذج اللّسانية التي تَفترضُ الآلياتِ التي تشتغل بها اللّغاتُ البشريةُ.

أجل، لقد قدّمَ العلماءُ العربُ القُدماءُ مادّة علميّةً ضخمة في ميدانِ علم اللّغة، ولكنّ هذه المادّةَ تحتاجُ إلى إعادة الصّياغةِ وفقا لمبادئ اللسانياتِ الحديثة وشروطها في التّنظيرِ والنّمذجَة، ويبدو أنّ كثيراً منَ الباحثينَ اللّسانيينَ العرب يبذلونَ جهوداً منهجيّة لقراءة التّراثِ اللّغوي وإعادة تركيبِه وفقا للتّصوّرات اللسانيّة الحديثة.

ولكن كيفَ السبيلُ إلى الإفادَةِ ممّا قدَّمه عُلماءُ العربيّةِ القُدماءِ، لبناءِ لسانياتٍ عربيّةٍ أصيلةٍ ومُعاصرةٍ؟

الجوابُ أنّه اجتهدَ كثيرٌ من اللسانيينَ العرب المعاصرينَ في تقديم مُعالجاتٍ لسانية للنّحو العربي خاصّةً وللتّراث اللغويّ والبلاغي والأصولي والكلامي عامّةً، وقدّموا قراءاتٍ لسانيةً واعيةً لهذا التّراث في ضوء ما يُناسبُه من نماذجَ لسانيةٍ حديثة. وانطلقوا في هذه القراءة من منهجيّة محدّدة، وإطار نظريّ يوحّد بين ظواهر الوصف والتحليل، من هذه القراءاتِ نجدُ النّحو الوظيفي التّداوليّ الذي عدّه المشتغلون عليه إطارا لسانيا صالحا لمقاربَة هذا التّراث واستكشاف النّسق النّظري العامّ الذي يؤطّر علومه جميعا على اختلاف مواضيعها وتعدُّدِ مصنَّفاتِها ورجالها، وخاصّة أنّ عواملَ نشأتها ومصادرَها واحدةٌ، وهذا ما يفرض على قارئ هذا التّراث أن يتناولَ علومَه لا على أنّها مستقلّ بعضُها عن بعض، ولكن على أساس اعتبارها خطابا متجانسا يستمدُّ مفاهيمَه ومنهجَه من جهاز نظريّ واحد - كما يقول أصحابُ هذه المقارَبَة[٧] - يركّز على عناصرَ وظيفيّةٍ تداوليّةٍ رئيسةٍ منها مقام الخطاب، ومنها مقاصدُ المتكلّم ونيّته من وراء الخطاب، ومنها أنّ وسيلة التّخاطب في التّراث الفكريّ العربيّ تجاوَزَت المفرداتِ والجملَ إلى النصّ بوصفِه وحدةً تواصليّةً متكاملةً ينتظم أجزاءَها موضوعٌ وغرضٌ.

فالسمةُ المميزةُ لهذا الخطابِ اللسانيّ العربيّ الحَديثِ هي حرصُه على «التوفيق بين مَضامينِ التّراثِ اللغويّ العربيّ وما تُقدِّمُه اللّسانيّاتُ الحديثةُ من نظرياتٍ ونَماذجَ وأدواتٍ إجرائيةٍ وطَرائقِ تحليلٍ، ويَستعملُ لسانيّو

(٦) مازن الوعر: قَضايا أساسية في علم اللّسانيّاتِ الحَديث، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨

(٧) أحمد المتوكل، المَنْحى الوظيفيّ في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرّباط، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

التّراثِ شتّى الوسائلِ المعرفيّةِ لتحقيقِ هذا المَسعى، في إطارِ ما عُرِفَ بقراءةٍ أو إعادَةِ قراءَةِ التّراثِ»[٨]

وبعد مسألة الاستفادة يمكن أن نتحدّثَ عن حدود الاتّصال بين علوم العربية والنّماذج اللّسانية المعاصرة للحُصول على لسانيات عربيّة مستقلة، وبالضّبط يمكن أن نتحدّثَ عن إمكانِ استثمار أفكارِ علماءِ العربيّةِ القدماءِ ونظراتهم، وتوظيفِها في تطويرِ البحث اللّساني. ولكن ينبغي مراعاةُ المفارقة والانفصال بين اللّغويات العربية القديمة واللّسانيات الحديثة؛ فالنّماذجُ اللّسانية المعاصرة تندرجُ في إطار نظرياتٍ مضبوطةٍ ببرنامجٍ علميٍّ محدَّد الأهداف. أمّا اللغوياتُ العربية القديمةُ فهي جمهرة من المعالَجاتِ اللغوية المتعدّدة المستويات، والمتفاوتة من حيثُ العمق في الوصف والتّحليل، والإجمال أو التفصيل، ولا بدّ من أخذ هذه الفروق بعين الاعتبار...

السؤال السادس

بالعودة إلى العلاقات المنعقدة بين اللغويات القديمة واللسانيات الحديثة، كيف يمكن استثمار علوم الآلة العربية من بلاغة ونحو وصرف وعروض في تجديد الدراسات اللسانية العربية؟

الحقيقةُ أنّنا لا نستطيعُ أن نتحدّثَ عن العلوم العربيّة وصلتِها بميدان اللّسانيّات إلاّ إذا تطرّقْنا إلى أهمّيةِ تجديدِ مناهج النّظرِ إلى هذا التّراث؛ فقد أحدثت اللّسانياتُ فتحاً معرفيّا ضخماً في عالَم المعرفَةِ، تجلّى في تجديد مناهجِ الدّراسة، وإدراجِ مفاهيمَ علميّة وأدواتٍ منهجيّة جديدةٍ من أجلِ إعادةِ قراءةِ هذا التّراثِ قراءةً واعيةً تكشفُ عن نقاطِ الالتقاءِ بعلم اللّغة الحديث، وتبحثُ في إمكانِ صياغةِ لسانيّاتٍ عربيّة حديثة تستمدّ مادّتَها من المصادرِ اللغويّة الموروثَة، ومنهَجَها من النّظريّاتِ اللسانية الحديثةِ، إنّها لسانياتٌ عربيّة حديثةٌ تنطلقُ من التّراثِ لاستمدادِ المادّةِ الصّالحةِ للوصفِ والدّراسة، ومن النّظريّاتِ اللّسانيّة الحَديثَةِ لاستمدادِ المنهجِ والتّصوّر وأدواتِ الوصفِ والتّفسير. وتردُ في سياقِ هذه العمليّةِ الإحيائيّة التّحديثيّةِ ضرورةُ استثمارِ النّظرات العلميّة العميقةِ لعلمائنا العربِ، للوصولِ إلى مرحلةِ منهجيّةٍ وهي مُحاوَلَةُ تَلَمُّسِ ما بَيْنَ الأَنْظارِ اللُّغَوِيَّةِ قَديمِها وحَديثِها مِنْ صِهْرٍ ونَسَبٍ ووَشائِجِ قُرْبى، فَرَضَتْها طَبيعَةُ التَّأَمُّلِ في الظَّواهِرِ اللُّغَوِيَّةِ، وأَمْلاها الانْتِسابُ إلى هذا الْحَقْلِ اللُّغَوِيِّ، الذي هُوَ حَقْلٌ بَشَرِيٌّ كُلّيّ شاملٌ لا يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الظُّروفِ والأَحْوالِ، ولا يَسْتَغْني عَنْهُ الْمُتَكَلِّمونَ مَهْما تَكُنْ وَسائِلُ الاتِّصالِ وَ الْبَدائِلُ الْمُسْتَجَدَّةُ في مَيْدانِ التَّفاهُمِ وَ التَّخاطُب .

والرأيُ عندَنا أنّ العلماءَ العربَ القُدماءَ

(٨) مصطفى غلفان: اللّسانيّات العربيّة-أسئلة المنهج، ص: ١٨٤.

قد قَدّموا مادّة علميّةً ضخمة في ميدانِ علم اللّغة، ولكنّ هذه المادّةَ تحتاجُ إلى إعادة الصّياغةِ وفقا لمبادئ اللسانياتِ الحديثة وشروطها في التّنظيرِ والنّمذجَة، ويبدو أنّ كثيراً منَ الباحثينَ اللّسانيينَ العرب يبذلونَ جهوداً منهجيّة لقراءة التّراثِ اللّغوي وإعادة تركيبِه وفقا للتّصوّرات اللسانيّة الحديثة.

ولا شكّ في أنّ العلماءَ والباحثينَ الغربيّين، في العلوم الإنسانيّة عامّة، وفي اللّسانيات على وجه الخُصوص، عندَما ارتضوا لأنفسِهِم الخوضَ في دراسة اللّغات الطّبيعيّة في بُعدها الإنسانيّ الشّامل، متجاوزينَ بذلكَ الدّراساتِ اللّغويّةَ الكلاسيكيّة التي كانَت تنحصرُ في وصفِ لغةٍ أو لغاتٍ خاصّة، فقدْ ألْفَوْا أنفسَهُم مُلزَمينَ بتَمْحيصِ فَرضياتِهِم النّظريّة التي وَضَعوها لوصف اللغةِ وتفسيرِها، لإثباتِ قوّتِها التّجريبيّة، ولا يتمّ تَمحيصُ هذِه الفرضياتِ إلاّ باستعراض جهودِ كثيرٍ من العلماءِ القُدماء. فتشومسكي مثلاً بنى نحوَه التوليدي على مادّة علميّة غزيرةٍ استقاها من مصادرَ كثيرة، اعتماداً أو نقداً، منها أنحاء القرنين ١٧م و ١٨م ذاتُ الأسس الفلسفية والمنطقيّة، وغيرها من الأنحاء الكلاسيكية الأخرى، كما استقى مادَّتَه من أعمال اللّغوي الهندي القديم "بنيني"، ومن الفيلسوف الفرنسي ديكارت، وفلاسفة ومفكّرينَ ولغويين أوروبيين وأمريكيين مثل ديكارت وبلومفيلد وهمبولدت وهاريس وغيرهم كثير. ولكنّ المصادرَ والكتاباتِ اللسانيةَ لا تذكرُ أثرا لاطّلاع تشومسكي على النّحو العربي أو على عَلَم من أعلام النّحو العربي. وعدمُ اطّلاعِه عليه لا ينقصُ من قيمته بل تدلّ كُتبُ مُتقدّمي النّحاة كسيبويه والمبردِ وغيرِهما على عُمقٍ في النّظر والتّقعيد. وليس بعيدا أن يكونَ تشومسكي قَد سعى إلى الاطّلاع على نَظرية العاملِ في كتاب سيبويه، وما يَدورُ في فَلَكِها من مفاهيمَ كالتقدير والحذفِ وغيرِهما، لا يُستبعدُ أن يكونَ قد اطّلع على العامليّة النحوية العربية قبل أن يؤسسَ نظريتَه الشّهيرة، "العامليّة والرّبط" [Government & Binding] وإن لم يُصرّح بذلك، كما يقولُ بعضُ الباحثين، ولكنّ هذا الاحتمالَ يحتاجُ إلى دليل على كلّ حال .

السؤال السابع

تنصبغ الحياة المعاصرة في شتى مناشطها، وضمنها البحث اللساني، بتسارع الاكتشافات وتطورها واطراد ذلك. ماذا عن آخر ما توصل إليه البحث العلمي في مجال اللسانيات؟ وكيف ترون مستقبل البحث اللساني العربي؟

أولاً لا بدّ من الإشارة إلى أهمية الدرس اللساني الحديث وأثره العَميق في الوعي بالمَفاهيم وقيمتها في بناء المعرفة الإنسانية وتطوير العلوم، ولا شك في أنّ اللسانيات

ذات نصيب كبير في تأسيس المفاهيم والمصطلحات التي لا يحصل التواصُل العلمي وتداوُل الأفكار إلا بها ولا تُعرَف النظرياتُ والأدوات والطرق والمناهج وأنساقُ المعرفَة إلا بها

ثانياً: مَدى إسْهامِ اللّسانيّاتِ الحَديثَةِ في خدمَةِ نَحْوِ العربيّةِ

- هل تعالج النظرياتُ اللسانيةُ النحويةُ قضيةَ النحوِ العربيّ؟ هل تضيفُ النظرياتُ اللسانيةُ طرقاً جديدةً لتعليم النحو العربي بدلاً من الطريقة التقليدية؟ وهل هناكَ تطبيقٌ ناجح لها؟ ويُمكن أن نتساءَل بطريقة أخرى: ما مكانة النّحو العربيّ من اللّسانيات الحديثة؟

لا شكّ في أنّ اللّسانياتِ قبلَ أن تنظرَ في نحو من الأنحاء التّقليدية كالنّحو العربي، قد استفادت - بمختلِف مذاهبِها ومناحيها - بطريقة أو بأخرى، من الأنحاء التّقليدية كالنّحو التّاريخيّ والنّحو المعياري والنّحو المقارن والنّحو العامّ والقياسي وربّما استفادت من النّحو العربي، استفادت من هذه الأنحاء في بناء نماذجِها وصياغة مفاهيمِها وأدواتِها في التّحليل اللساني، والمثال على هذه الاستفادة واضحٌ في النّحو التّوليدي، حتّى قيلَ إنّ النّحو التوليدي تركيبٌ بين الأنحاء التقليدية والأنحاء البنيويّة التي ظهرت بعد دوسوسير، وقيلَ إنّه أخذ فكرةَ بناء "نحو كلّي" من "مدرسة بور رويال" في القرن السّابع عشر، وأخذَ "صَوْرَنَتَه" من الأنحاء البنيويّة"، ونظير ذلك استفادة "النّحو الوظيفي" من الأنحاء التقليدية في القول "بالوظائف النّحوية"، واستفادةُ "الدّلالة الحديثة" من "البلاغة القديمة"، واستفادة "التّداوليّات" من "فلسفة اللّغة والمنطق" .

ثالثاً: وبعد مسألة الاستفادة يمكن أن نتحدّثَ عن حدود الاتّصال بين النّحو العربي والنّماذج اللّسانية المعاصرة، وبالضّبط يمكن أن نتحدّثَ عن إمكانِ استثمار أفكارِ النّحاة العربِ القدماءِ ونظراتهم، وتوظيفِها في تطويرِ البحث اللّساني .

ولكن ينبغي مراعاةُ المفارقة والانفصال بين اللّغويات العربية القديمة واللّسانيات الحديثة؛ فالنّماذجُ اللّسانية المعاصرة تندرجُ في إطار نظرياتٍ مضبوطةٍ ببرنامجٍ علميٍّ محدَّد الأهداف. أمّا اللغوياتُ العربية القديمةُ فهي جمهرة من المعالَجاتِ اللغوية المتعدّدة المستويات، والمتفاوتة من حيثُ العمق في الوصف والتّحليل، والإجمال أو التفصيل، ولا بدّ من أخذ هذه الفروق بعين الاعتبار...

ولقد اجتهدَ كثيرٌ من اللسانيينَ العرب المعاصرينَ في تقديم مُعالجاتٍ لسانية للنّحو العربي خاصّةً وللتّراث اللغويّ والبلاغي والأصولي والكلامي عامّةً، وقدّموا قراءاتٍ لسانيةً واعيةً لهذا التّراث في ضوء ما يُناسبُه

من نماذجَ لسانيةٍ حديثة. وانطلقوا في هذه القراءة من منهجيّة محدّدة، وإطار نظريّ يوحّد بين ظواهر الوصف والتحليل، من هذه القراءاتِ نجدُ النّحو الوظيفي التّداوليّ الذي عدّه المشتغلون عليه إطارا لسانيا صالحا لمقاربَة هذا التّراث واستكشاف النّسق النّظري العامّ الذي يؤطّر علومه جميعا على اختلاف مواضيعها وتعدُّدِ مصنَّفاتِها ورجالها، وخاصّة أنّ عواملَ نشأتها ومصادرَها واحدةٌ، وهذا ما يفرض على قارئ هذا التّراث أن يتناولَ علومَه لا على أنّها مستقلّ بعضُها عن بعض، ولكن على أساس اعتبارها خطابا متجانسا يستمدُّ مفاهيمَه ومنهجَه من جهاز نظريّ واحد - كما يقول أصحابُ هذه المقارَبة[9] - يركّز على عناصرَ وظيفيّةٍ تداوليّةٍ رئيسةٍ منها مقام الخطاب، ومنها مقاصدُ المتكلّم ونيّته من وراء الخطاب، ومنها أنّ وسيلة التّخاطب في التّراث الفكريّ العربيّ تجاوَزَت المفرداتِ والجملَ إلى النصّ بوصفِه وحدةً تواصليّةً متكاملةً ينتظم أجزاءَها موضوعٌ وغرضٌ.

ومن اللسانيّين العرب مَن اجتهَد في وضع نحو جديدٍ للعربية المعاصرة وذلك من خلال إمكان التّطبيق للمبادئ النّظرية لأنموذج لسانيٍّ ما على اللغة العربية المعاصرة[10] أو على أجزاء منها، ويؤدّي هذا التّطبيقُ إلى تغييرِ الوضعِ اللّغويّ، وإعداد المصطلحات الفنية، وإعادةِ النّظر في أجهزة اللغة قصد تجديد التّعبير بها، وإتاحةِ الفرصة للتّطويع اللّغويّ، وإدماجِ مفاهيمَ حضاريةٍ وعلميّة جديدة، وتناوُلِ مشاكلِ التّعليمِ وتصميمه وبرمجتِه، وتحقيقِ الأهداف المتوخّاة منه، ووضعِ الكتابِ المدرسيِّ، وتأليفِ المعاجم والكتبِ النّحويّة، واستثمار نتائج البحث اللّساني في تعليم اللغة العربية، للناطقين بها وبغيرِها، وتطبيقِ اللسانياتِ في تحليلِ أنواعِ الخطابِ المختلفةِ، وتحليلِ الآثار الفنّيّةِ، وتحليلِ الظّواهرِ النّفسيّةِ والمَرَضِيّة المتّصلة بالنّشاط الكلاميّ، ومعالَجَة النّصوص معالَجةً آليةً حاسوبيّةً، إلى غيرِ ذلك من الميادين التّطبيقيّة...

وهكذا نجد أنّه قد أحدِثت طرقٌ جديدةٌ في تعليم العربية، منها المُقاربَةُ الوظيفيّة التّداوليّة، والمقاربةُ التّوليديةُ من خلال بعض نماذِجها التي تركّز على البنية السطحية والبنية العميقة والتّحويلات ...

ومعنى ذلكَ كلّه أنّ العربيةَ لغةٌ تتضمّنُ طاقاتٍ تعبيريةً وتواصليةً هائلة تمكّنُها من أن تُعالَج بمقارباتٍ لسانية مختلفةٍ تيسّرُ تعليمَها وإدماجَها في السياق العامّ للمعرفة البشرية.

أما عن مستقبل اللسانيات في العالَم العربي فهو أمر يتعلقُ بمَدى تطور حَرَكَة الترجمَة: والحاجَةُ إلى التّرجمة واردةٌ بقوة لتحقيقِ فائدتَيْن:

(٩) انظر: "المَنْحى الوظيفيّ في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، د.أحمد المتوكّل، دار الأمان، الرّباط، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(١٠) اللسانيات واللغة العربية، د.عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥م

- أولاهُما نَقـلُ الأعمـال اللسـانيةِ الكبـرى إلـى اللغـةِ العربيّـةِ لتزويـدِ اللسـانيّاتِ العربيّـةِ وإمدادِهـا بالمـادَّةِ اللّسـانيّة الجَديـدَةِ، وتَزويـدِ الثّقافَـةِ العربيّـةِ بمـا جـدَّ فـي الفكـر اللّسـانيّ الحديـثِ، وتَحقيـقِ شَـرطِ المُواكَبَـة.

والمُلاحـظُ فـي سـارِ التّرجمَـة اللّسـانيّة العربيّـة أنـه تعـرَّضَ لتَعثُّـر متواصـل وواجَـه عقبـاتٍ كثيـرةً، منهـا غيـابُ التّكامُـل والتّنسـيق بيـن المُترجميـنَ اللسـانيين العَـرب، ومـا أسـفرَ عنـه ذلـكَ مـن تَكـرار الأبحـاثِ وتناثُرهـا وعَـدَم انضباطِهـا إلـى تراكـم معرفـيّ مُنظَّـمٍ يُفضـي إلـى إرسـاءِ قَواعـد البَحـث العلمـيّ الصّحيـح [11]. ومـن مُشـكلاتِ ترجمـة الأعمـال اللّسـانيّةِ أيضـاً نَقـصُ المعاجـمِ اللّسـانيّةِ العربيّـةِ واضطـرابُ موادِّهـا ومنهجهـا ومصادِرهـا. وأكبـرُ مَشـاكلِ التّرجمَـةِ اللّسـانيّةِ إشـكالُ المُصطلـحِ اللّسـانيّ؛ فـإنّ وُضـوحَ المصطلَـحِ اللّسـانيّ وانتشـارَه شـرطٌ فـي تَمايُـز المَفاهيـم؛ فـي زَمَـن صَخَـب المُصطلَحـاتِ وتَشـتُّتِها، ومـا ترتّـبَ عـل هـذا الصَّخَـبِ مـن اختـلاط المَفاهيـمِ وتَداخُلِهـا ومـن مَتاهـاتِ الأنفـاقِ فـي طَريـقِ البَحـثِ العلمـيّ. ولا تسـتقيمُ لغـةُ البحـثِ العلمـيّ فـي اللّسـانيّاتِ إلاّ بضبـطِ المُصطلَـح وتَمييـزِ المَفْهـومِ ووُضـوح المَنهَـج لوقايـةِ القـارئِ والمتلقّـي مـن تَناقُـض المَعانـي فـي الذّهـن.

ومـن أجـلِ ذلـكَ أصبـحَ **مـن الأولويّـاتِ تَوحيـدُ مناهـجِ الترجمَـةِ والمُصطلـحِ اللّسـانيّ،** بتوحيـدِ الجُهـودِ والطُّـرُق والأدواتِ، والتنسـيقِ بيـن فـرقِ البَحـث اللسـانيّة فـي العالَـم العربـيّ المَعنيّـةِ بترجمـةِ الأعمـالِ اللّسـانيّةِ الكُبـرى عامّـةً وترجمـة المُصطلحـاتِ اللّسـانيّةِ علـى وجـه الخُصـوصِ. ولا يتحقـقُ ذلـكَ إلاّ بوُجـودِ مؤسَّسـةٍ علميّـةٍ تنسِّـقُ جُهـودَ التّرجمَـةِ وتُوجِّهُهـا، وتتولّـى مراجَعَـةَ المُترْجَمـاتِ اللسـانيّةِ ومراجَعَـةَ المُقْتَرَحـاتِ الاصطلاحيّـة. فـإنّ تنسـيقَ الجُهـودِ كفيـلٌ باختصـارِ الوقـتِ ومواكَبَـةِ حَرَكَـةِ صُـدورِ الأعمـالِ اللّسـانيةِ العالَميّـةِ، للتّغلُّـبِ علـى ترجمتِهـا [12].

- **الثانيـةُ إسـهامُ اللّسـانيّاتِ فـي تَطويـرِ عمليّـةِ التّرجمَـة نفسِـها وإمدادِهـا بـالأدواتِ العلميّـةِ والمنهجيّـةِ**، وفـي ذلـكَ اسـتثمارٌ لعُلـوم التّرجَمـةِ وتطبيقاتِهـا فـي عمليّـةِ نقـلِ الفكـرِ اللّسـانيّ الحَديـثِ إلـى الثّقافَـةِ اللِّسـانيّةِ العربيّـةِ؛ فقَـد تطـوَّرَت الترجمـةُ بوصفِهـا علمـاً أو صناعـةً، عندَمـا تسـلَّحَت بـأدواتِ اللسـانياتِ الحَديثَـةِ ومناهجِهـا و مُصطلحا تِهـا .

وتتجلّـى عَلاقـةُ اللّسـانيّاتِ بالتّرجمَـةِ فـي أنّ اللسـانياتِ دراسـةٌ علميـة منهجيـة للظاهـرة اللغويـة ووصْـفٌ لِبنْياتِهـا الصوتيـة والصرفيـة والتركيبيـة والدلاليـة والمُعجميـة والتداوليَّـة؛ وذلـكَ لمعرفـة قوانيـن حركيَّتهـا ووظائفهـا، أمّـا

(١١) حافـظ إسـماعيلي علـوي: اللّسـانيّاتُ في الثّقافَـة العربيّـة المُعاصـرة، ص: ١٩٦.

(١٢) مـن نمـاذجِ التّخلُّـفِ عَـن مواكبَـةِ رَكـب الأعمـالِ العالَميّـةِ الكبْرى والتقصيرِ في تعريبِها، ما ذكَرَه الباحثونَ من أنّ أوَّلَ ترجمـةٍ ظَهَـرت لكتـابِ سوسـير ظَهَـرَت في الثقافَـةِ العربيّـةِ، سـنةَ ١٩٨٤، أي « بَعْـد مـرورِ حَوالـي سَـبعينَ سـنةً على ظهـورِ الطّبعـةِ الأولى مـن الكِتـابِ سـنةَ ١٩١٦... » : حافـظ إسـماعيلي علـوي: اللّسـانيّاتُ في الثّقافَـة العربيّـة المُعاصـرة، ص: ٢٠٠.

الترجمة فهي فنُّ نقْلِ المعاني من لغة إلى أخرى مع الحفاظ على خصائصِ اللغةِ المنقولِ إليها، والجامعُ بينهما أن اللسانياتِ تُمدُّ فنَّ الترجمة بمعرفة خصائص اللغات وما تَشترِك فيه وما تَختلف فيه وتمدُّها بالتقنيات اللغوية لنقل المعاني. وتَستعينُ التّرجمةُ باللسانيات في معرفة بِنيات اللغاتِ وخصائصِها ومميزاتها، ومَعرفة قضايا التواصُل بين اللغات والتقريبِ بينها. فللسانيّاتِ تأثيرٌ كبيرٌ في بناء الأعمال الترجَميّة، وقَد حصلَ تطوُّرٌ كبيرٌ في النظرِ إلى الترجمة من كَونها فنًّا وتقنيةً يَمتلك المترجمُ آلياتها، إلى كونها علماً قائماً على مبادئ دقيقةٍ أثَّرَت اللسانياتُ في صياغتها وبَسطِها أمامَ الترجَمَة. وقَد آنَ الأوانُ لتَّتخذَ اللّسانيّاتُ العربيّةُ الترجمةَ أداةً رئيسةً من أدواتها وأولويّةً كُبْرى من أولوياتِها.